

أَسْبَابُ اكْتِسَابِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ:

١- الإِخْلَاصُ:

لِلْإِخْلَاصِ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي الْأَخْلَاقِ؛ فَهُوَ يَمُدُّ قَلْبَ صَاحِبِهِ بِقُوَّةٍ تَجْعَلُهُ يَنْهَضُ لِلْمَكَارِمِ؛ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْأَخْلَاقَ عِبَادَةٌ يَكْمَلُ بِهَا الْإِنْسَانُ إِيمَانَهُ؛ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» (١).

وَلَنْ يُسْتَكْمَلَ إِيمَانُ الْمَرْءِ حَتَّى يَكُونَ عَمَلُهُ خَالِصًا لِرِجْهِ اللَّهِ صَوَابًا عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ» (٢).

(١) صحيح، رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وصححه الألباني في «الصحيححة» (٢٨٤)، و«صحيح الجامع» (١٢٣٢).  
 (٢) صحيح، رواه أبو داود (٤٦٨١)، والترمذي (٢٥٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٥٦٥).

## ٢ - العِلْمُ :

العِلْمُ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الْأَخْلَاقِ فَهُوَ يُشْمَرُ التَّدِينِ الصَّحِيحِ، فَكَمْ مِنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَقْرُؤُهَا، فَتُرَقِّقَ قَلْبَكَ لِلإِحْسَانِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْحَنَانِ، وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ تَتَخَلَّقُ بِهِ مَعَ النَّاسِ، يَجْلِبُ لَكَ مَحَبَّةَ اللَّهِ، ثُمَّ مَحَبَّةَ النَّاسِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: « مَنَفَعَةُ الْعِلْمِ فِي اسْتِعْمَالِ الْفَضَائِلِ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ حُسْنَ الْفَضَائِلِ، فَيَأْتِيهَا - وَلَوْ فِي النُّدْرَةِ - وَيُعَلِّمُ قُبْحَ الرَّذَائِلِ، فَيَجْتَنِبُهَا - وَلَوْ فِي النُّدْرَةِ -، وَيُسَمِّعُ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ، فَيُرْغَبُ فِي مِثْلِهِ، وَالثَّنَاءَ الرَّدِّيَّ، فَيَنْفِرُ مِنْهُ، فَعَلَى هَذِهِ الْمَقَدِّمَاتِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْعِلْمِ حِصَّةٌ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَلِلْجَهْلِ حِصَّةٌ مِنْ كُلِّ رَذِيلَةٍ.

وَهَذِهِ مَنَزَلَةٌ خُصَّ بِهَا النَّبِيُّونَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -؛ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَّمَهُمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ، دُونَ أَنْ يَتَعَلَّمُوهُ مِنَ النَّاسِ » (١).

(١) « الْأَخْلَاقُ وَالسَّيْرُ » (٩٣).

## ٣ - العقيدة الصحيحة:

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ هِيَ أَصْلُ الْأَخْلَاقِ وَمَصْدَرُهَا، فَإِذَا  
ثَبَّتَتْ وَاسْتَقَرَّتْ، أَثْمَرَتْ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ.

فَالِإِصْلَاحُ مَبْدِئُهُ مِنَ الْقَلْبِ، وَكَذَلِكَ الْفَسَادُ، ثُمَّ يَتَسَعُّ  
لِيَشْمَلَ إِرَادَةَ الْإِنْسَانِ وَأَفْعَالَهُ فَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -  
قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ  
مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ  
الْجَسَدُ كُلُّهُ: أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (١).

قَالَ الْغَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «آدَابُ الظُّوَاهِرِ عُنْوَانُ آدَابِ  
الْبَوَاطِنِ، وَحَرَكَاتُ الْجَوَارِحِ ثَمَرَاتُ الْخَوَاطِرِ، وَالْأَعْمَالُ  
نَتِيجَةُ الْأَخْلَاقِ، وَالْآدَابُ رَشْحُ الْمَعَارِفِ، وَسَرَائِرُ الْقُلُوبِ هِيَ  
مَغَارِسُ الْأَفْعَالِ وَمَنَابِعُهَا، وَأَنْوَارُ السَّرَائِرِ (٢). وَهِيَ الَّتِي  
تُشْرِقُ عَلَى الظُّوَاهِرِ، فَتُرَيُّنَهَا وَتُجَلِّيَهَا، وَتُبَدِّلُ الْمَحَاسِنَ  
بِمَكَارِمِهَا وَمَسَاوِيهَا، وَمَنْ لَمْ يَخْشَعْ قَلْبُهُ، لَمْ تَخْشَعْ

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) السرائر: القلوب، مفردة سريرة.

جَوَارِحُهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَدْرُهُ مَشْكَاةً (١) الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ، لَمْ يُفِضْ عَلَيَّ ظَاهِرِهِ جَمَالَ الْأَدَابِ النَّبَوِيَِّّةِ (٢).

#### ٤ - النَّظَرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ:

كِتَابُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَمَعَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ خَيْرُ جَمْعٍ، فَمَنْ أَرَادَ الْأَخْلَاقَ فَلْيُحَاوِلْ جَاهِدًا أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « مَنْ جَهَلَ الْفَضَائِلَ، فَلْيَعْتَمِدْ عَلَيَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - ، وَرَسُولُهُ - ﷺ - فَإِنَّهُ يَحْتَوِي عَلَيَّ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ » (٣).

#### ٥ - التَّأْسِيُّ بِالنَّبِيِّ - ﷺ - :

النَّبِيُّ - ﷺ - هُوَ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ، الَّذِي أَمَرْنَا اللَّهُ بِالتَّأْسِيِّ بِهِ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَحْوَالِهِ.

(١) المشكاة: فجوة في الجدار، لا تصل فتحته إلى الطرف الثاني منه، شبه الصدر بها.

(٢) «الإحياء» (٣٥٧/٢).

(٣) «الأخلاق والسير» (١٧٦).

قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [ الْأَحْزَابُ : ٢١ ] .

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « مَن أَرَادَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَحِكْمَةَ الدُّنْيَا ، وَعَدَلَ السَّيْرَةِ ، وَالِاحْتِوَاءَ عَلَيَّ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ كُلِّهَا ، وَاسْتِحْقَاقَ الْمَضَائِلِ بِأَسْرِهَا - فَلْيَقْتَدِ بِمُحَمَّدٍ - ﷺ - ، وَلْيَسْتَعْمِلْ أَخْلَاقَهُ وَسَيْرَهُ مَا أَمَكْنَهُ ، أَعَانَنَا اللَّهُ عَلَى الْإِتْسَاءِ بِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ » (١) .

### ٦ - الدُّعَاءُ :

الدُّعَاءُ سَبَبٌ عَظِيمٌ لِنَيْلِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - كَثِيرُ الضَّرَاعَةِ إِلَى رَبِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ حُسْنَ الْخُلُقِ ، فَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَاءِ الْاسْتِفْتَاكِحِ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ : « اللَّهُمَّ ، اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا

(١) « الْأَخْلَاقُ وَالسَّيْرَةُ » (٩١) .

أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» (١).

### ٧ - الْعَمَلُ الصَّالِحُ:

الإيمان والعمل الصالح يبعثان على مكارم الأخلاق، وهما النظام الداخلي الذي يقوم أخلاق المرء ويوجهها.

وإني لئسني عن الجهل والحنأ

وعن شتم ذي القربى - خلائق أربع:

حياء، وإسلام، وتقوى، وطاعة

لربي، وربي من يضر وينفع (٢)

### ٨ - الرُّفْقَةُ الصَّالِحَةُ:

الرُّفْقَةُ الصَّالِحَةُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمَعِينَةِ عَلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ.

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (٢٥٠).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:  
«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» (١).

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ عَلَى قَدْرِ مَنْ يُصَاحِبُ؛ فَلْيَنْظُرْ مَنْ يُصَاحِبُ، فَإِنْ صَاحَبَ الصَّالِحِينَ صَارَ مِنْهُمْ، وَإِنْ صَاحَبَ سِوَاهُمْ صَارَ مِثْلَهُمْ، وَقَدِيمًا قِيلَ: «قُلْ لِي: مَنْ تُصَاحِبُ؟»، أُخْبِرَكَ مَنْ أَنْتَ.

أَنْتَ فِي النَّاسِ تُقَاسُ بِالَّذِي اخْتَرْتَ خَلِيلًا  
فَاصْحَبِ الْأَخْيَارَ تَعْلُو وَتَنْلُ ذِكْرًا جَمِيلًا

### ٩ - الْمُحَاسَبَةُ:

زَكَاةُ النَّفْسِ وَطَهَارَتُهَا مَوْقُوفٌ عَلَى مُحَاسَبَتِهَا.

قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: «لِيَحْسُنْ تَعَاهُدُكَ لِنَفْسِكَ، بِمَا تَكُونُ بِهِ لِلْخَيْرِ أَهْلًا؛ فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، أَتَاكَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ، كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءُ السَّيْلَ إِلَى الْحُدُورَةِ (٢)»، (٣).

(١) حسن، رواه أبو داود (٧٨٣٣)، والترمذي (٣٣٧٨)، وحسنه

الألباني في «الصححة» (٩٢٧).

(٢) الحُدُورَةُ: المنخفض من الأرض.

(٣) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (٩٠).

## ١٠- المِجَاهِدَةُ:

الْأَخْلَاقُ مِنْهَا مَا هُوَ طَبِيعٌ يَتَفَضَّلُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيَّ  
بَعْضِ خَلْقِهِ فَيَجْبِلُهُمْ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ مِنْهُمْ، وَمَنْ حُرِّمَ  
الْخُلُقَ عَلَيَّ سَبِيلِ الطَّبِيعِ؛ فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَنَالَهُ عَلَيَّ سَبِيلِ  
التَّطَبُّعِ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ وَحَمَلِهَا عَلَيَّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَإِنَّ  
النَّفْسَ قَابِلَةً لِذَلِكَ .

قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَدَلِيُّ:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا

وَإِذَا تَرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

قَالَ ابْنُ قَدَامَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « وَقَدْ زَعَمَ مَنْ غَلَبَتْ

عَلَيْهِ الْبَطَالَةُ؛ فَاسْتَثْقَلَ الرِّيَاضَةَ: أَنَّ الْأَخْلَاقَ لَا يُتَصَوَّرُ

تَغْيِيرُهَا، كَمَا لَا يُتَصَوَّرُ تَغْيِيرُ صُورَةِ الظَّاهِرِ!، وَالْجَوَابُ أَنَّهُ

لَوْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ لَا تَقْبَلُ التَّغْيِيرَ، لَمْ يَكُنْ لِلْمَوَاعِظِ

وَالْوَصَايَا مَعْنَى، كَيْفَ تُنَكِّرُ تَغْيِيرَ الْأَخْلَاقِ؟! وَنَحْنُ نَرَى

الصَّيْدَ الْوَحْشِيَّ يُسْتَأْنَسُ، وَالْكَلْبُ يُعَلَّمُ تَرْكَ الْأَكْلِ،

وَالْفَرَسُ تَعْلَمُ حُسْنَ الْمَشْيِ، وَجَوْدَةَ الْأَنْقِيَادِ، إِلَّا أَنْ بَعْضَ  
الطَّبَاعِ سَرِيعَةَ الْقَبُولِ لِلصَّلَاحِ، وَبَعْضُهَا مُسْتَعْصِبَةٌ» (١).

### ١١- عَلُّوْهُمُ:

عَلُّوْهُمُ: «هُوَ اسْتِصْغَارُ مَا دُونَ النَّهَائِيَةِ مِنْ مَعَالِي  
الْأُمُورِ» (٢).

وَتَعْلُوْهُمُ أَخْلَاقُ الْمَرْءِ وَتَسْمُوْهُمُ بِقَدْرِ نَصِيْبِهِ مِنْ عُلُوْهِمُ. قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «فَمَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، وَخَشَعَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيْلِ، وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ، وَطَغَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيْلِ» (٣).

### ١٢- الاسْتِفَادَةُ مِنَ الْآخِرِيْنَ:

اللَّبِيْبُ يَسْتَفِيْدُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُخَالِطُهُ، سَوَاءً كَانَ نَاقِصًا أَمْ كَامِلًا، وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ وَالْحُكَمَاءِ يَتَعَلَّمُونَ الْمَكَارِمَ مِنَ الْمُوصُوفِيْنَ بِأَضْدَادِهَا!

(١) مختصر منهاج القاصدين، (١٥٢).

(٢) «رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين (٢/٨٦).

(٣) «الفوائد» (٢١١).

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: « وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَعَلَّمُ  
الْمُرُوءَةَ، وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْمَوْصُوفِينَ بِأَضْدَادِهَا، كَمَا  
رُويَ عَنْ بَعْضِ الْأَكْبَارِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ، فَظُّ  
غَلِيظٌ، لَا يُنَاسِبُهُ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي أَدْرِسُ عَلَيْهِ  
مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ! ».

« وَهَذَا يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي ضِدِّ أَخْلَاقِهِ، وَيَكُونُ  
بِتَمْرِينِ النَّفْسِ عَلَى مُصَاحَبَتِهِ، وَمُعَاشَرَتِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ » (١).

### ١٣- النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ سُوءِ الْخُلُقِ:

سَيِّئُ الْخُلُقِ مَذْكُورٌ بِالذِّكْرِ الْقَبِيحِ، يَمَقُّتُهُ اللَّهُ - عَزَّ  
وَجَلَّ -، وَيُبْغِضُهُ الرَّسُولُ - ﷺ -، وَيُبْغِضُهُ النَّاسُ عَلَى  
اِخْتِلَافِ مَشَارِبِهِمْ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -  
ﷺ -: « وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْغَضَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ،  
أَسْوَأُكُمْ أَخْلَاقًا » (٢).

(١) «مدارج السالكين» (٣٣٥/٢).

(٢) صحيح، رواه ابن ماجه (٤٢٢٤)، وصححه الألباني في  
«الصحيحه» (١٧٤٠).

قَالَ الْعَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « الْأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ هِيَ  
السُّمُومُ الْقَاتِلَةُ، وَالْمُهْلِكَاتُ الدَّامِغَةُ، وَالْمَخَازِي الْفَاضِحَةُ،  
وَالرَّذَائِلُ الْوَاضِحَةُ، وَالْحَبَائِثُ الْمُبْعِدَةُ عَنْ جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،  
الْمُنْخَرِطَةُ بِصَاحِبِهَا فِي سِلْكِ الشَّيَاطِينِ، وَهِيَ الْأَبْوَابُ  
الْمَفْتُوحَةُ إِلَى نَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ، الَّتِي تَطْلَعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ » (١).



(١) « إحياء علوم الدين » (٣/٥٣).